تحديث وسائل تسجيل الآثار

أ.د عبد الحميد زايد*

يتمثل تراث أي أمة من الأمم فيما تركته أبناؤها من آثار ثابتة كالمعابد و المقابر و المساجد و الكنائس و الأديرة و التماثيل و اللوحات من مختلف المواد المعدنية و الحجرية و الخزفية وأدوات الزينة والفنون الصغرى كالجعارين والأختام التي نقلت إلي المتاحف وبعد الحفاظ علي هذه التحف وصيانتها وتسجيلها من أهم عوامل تنمية الإنتماء القومي حيث إنها تعبر تعبيراً صادقاً عن روح العصر الذي عاشت فيه وتظهر مدى تقدم الإنسان الحضاري وكذلك تظهر تقاليد وعادات الناس في فترات متعددة غابت عنا ، وتبين تطور حياة الإنسان في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية و المعتقدات الدينية التي دان بها الناس الذين عاشوا هذه السنوات ، وأن هذه المقتنيات تنير لنا الطريق في تاريخ وحياة الإنسان و الحرف التي امتهنها وتقدم فيها .

كانت أرض مصر مسرحاً لحضارة أقدم وأعرق الحضارات التي عرفها التاريخ ، وعلي أديم تلك الأرض الطيبة سجل أجدادنا العظام أروع المحاولات التي أجراها الإنسان للوصول إلي مستوى أفضل من الحياة ،وتركوا أعظم تراث بشري قدم للإنسان عبر الأجيال ، ولعل مرجع ذلك إلي عاملين رئيسين :-

الأول : أن بلادنا امتلكت المقومات الطبيعية الأساسية وتوافرت بها العناصر الملائمة لقيام حضارة عظيمة

الثاني : أن سكان البلاد الأوائل قد تمكنوا من الإفادة من تلك المقومات الطبيعية ونجحوا في إخضاع البيئة واستغلالها .

وهكذا قدمت البيئة أسباب الحضارة وهيأت لها سبل الازدهار، وتجاوب الإنسان معها واستفاد من مواردها أكبر فائدة ممكنة ، وكان النتاج الطبيعي لهذا التفاعل المثمر بين البيئة والإنسان ذلك التراث التاريخي الخالد فما التاريخ إلا سجل لكفاح الإنسان مع البيئة ومع غيرة من الناس.

النيل هو الذي علم المصريين الإحصاء والهندسة والحساب ، عندما أخذوا يراقبون فيضانه ويحاولون التحكم فيه ، فأنشئوا المقاييس التي يعرفون منها حالة النهر ، فيروون محاصيلهم ويجمعون الضرائب علي أساسه كما أقاموا مشاريع الري في كل مكان لضبط هذه المياه وتنظيمها ، والنيل هو الذي سهل المواصلات وأدى إلي ارتباط السكان وتعاونهم ، فالماء جعل مصر عبارة عن شريط ضيق طويل يمتد من الجنوب إلي الشمال . تقع المدن الهامة علي ضفتيه مما جعل الملاحة النهرية سواء في النهر أو الترع المتفرعة منه المكان الأول وعلي ماء النيل وصل المصريون إلي البحر فحملوا إلي سائر أقطار الشرق القديم نور العلم والمعرفة وللنيل أثر واضح في عقائد المصريين وأخلاقهم . فهو مصدر الوحي بعقيدة القوم في البحث ، حين ينظرون إلي مائه فيرون كيف يفيض ثم يغيض ، والنيل هو الذي أوحي إليهم سن القوانين ، يضبطون أمورهم ، حتى يسقون وحين يحصدون ، والنيل هو الذي علم المصريين الصبر و الكفاح في سبيل الاستفادة من خيراته، والحرص وبعد النظر في أمور الحياة .

* أستاذ التاريخ الفرعوني والحضارات القديمة ـ جامعة القاهرة

وهكذا ارتبطت معيشة سكان مصر بذلك النهر ارتباطاً لا تنفصم عراه ، وقد عرف المصريون لنيلهم فضلة الكبير وآمنوا أنه لولاه لما قدر لمصر هذا الحظ من الحياة ، ولما قامت بها هذه الحضارة الرفيعة فعظموه وأسموه "حعبي" بمعني (الفيض) وعبروا عن ذلك بإقامة الأعياد احتفالاً بمقدمه ونظموا الأناشيد فرحاً بوفائه كما نحتوا له تماثيل تصوره في هيئة آدمي ضخم البطن كبير الثديين إشارة إلي الخير والبركة .
هكذا لعبت العوامل الجغرافية من نهر نابض بالحياة وموقع ممتاز ومناخ ملائم وحدود منيعة وموارد وافرة ذلك المثل الرائع في خلق هذا الوطن وتنمية حضارته وترقية أهله بعد دراسات وأبحاث علمية استمرت خمس سنوات نجحت بعثة جامعة "الينوي" الأمريكية بشيكاغو في العثور علي هيكل عظمي لإنسان مصري قدر العلماء بـ ٣٣ ألف سنة ليكون بذلك أقدم هيكل عظمي عثر عليه في مصر حتى الآن.

عثرت البعثة علي الهيكل بمنطقة وادي "فيران" بسيناء وتمكنت من استخلاص الهيكل من الصخور الكلسية التي تحجرت حوله منذ آلاف السنين ونجح الدكتور "جاك بروث" عالم الانتربولوجيا الأمريكي واستخلاص البقايا وتمكن باستخدام الأجهزة العلمية في معامل الجامعة من تحديد أن الهيكل كان لرجل طوله ١٧٥ سنتيمتراً.

ونتوقف أمام تساؤل حول أهمية هذا الاكتشاف الجديد.
الدكتور / محمد البهي عيسوي العالم الجيولوجي المصري الذي يشارك البعثة في أبحاثها يؤكد أن هذا الإنسان يعتبر أقدم إنسان مصري تم العثور عليه حيث أن الإنسان الذي عثر عليه قبل ذلك والمسمي إنسان "الكوبانية" نسبة إلي منطقة كوم أمبو بمحافظة أسوان كان عمره ٢٠ ألف سنة وعثرت عليه عام ١٩٨٠ بعثة جامعة "دالاس " الأمريكية.

وأكد الدكتور عيسوي أن البعثة عثرت علي بعض بقايا عظمية أخري لحيوانات أكثرها من الماعز وكذلك بعض الأدوات التي تؤكد أن منطقة وادي فيران من المناطق القليلة جداً في العالم التي سكنها الإنسان المصري منذ ٦٠ ألف سنة ،أشار إلي أن ما يؤكد سكن الإنسان المصري في وادي فيران منذ ٦٠ ألف سنة وجود المياه العذبة حيث أثبتت الدراسات الأركولوجية والجيولوجية أن هناك رواسب البحيرات كانت مملؤة بالماء بالمنطقة أهمها بحيرتان الأولي كانت تمتد من جنوب "سانت كاترين" وحتي واحة الطرف بطول ٢٥ كيلو متراً وان المياه العذبة كانت تملأ البحيرات بدرجة كبيرة وان الأمطار كانت تسقط بغزارة مما دفع الإنسان المصري القديم لسكني هذه المناطق إلي أن توقف المطر وحل الجفاف بالمنطقة منذ نحو ١٢ ألف سنة.

نما في مصر ترف ونعيم نتيجة ثروتها المتدفقة من الزراعة وجهود أبنائها وظهر علي أرض وطننا منذ أقدم العصور الأفكار المتباعدة المتباينة كما نلمسها فيما اصطلح علي تسميته بنصوص الأهرام وغيرها من نصوص حتى أنها تصور لنا الآن مجموعة من الآراء الفلسفية المتناقضة وواضح في الحضارة القديمة أنها بالرغم من قبولها بعض الآراء المبتكرة في الفنون والآداب أو غيرها ودمجها في فنونها وآدابها فإن المصري القديم لم يتخل عن القديم من أجل ذلك لوحظ أن القديم عاش إلي جانب الحديث في مصر الفرعونية.

كان المصريون يشعرون أن مدينتهم أرقي المدن المدنيات وأرفعها فهذا أحد الأمراء الأسيويين حينما جاء سفير مصر "ون آمون" يعترف له بما يلي ويقول "إن آمون انشأ كل البلاد ولكنه أنشأ من قبل أرض مصر التي أتت منها الصناعة لتصل إلي مكاني .لقد أتت الحكمة منها لتصل إلي مكاني ...ما من سفينة في النهر ليست لآمون إن البحر ملك له..." ومن ذلك نري اعتراف الأجانب بزعامة مصر في العلم والصناعة.

أما العنصر الرئيسي الذي كان له أكبر الأثر في حياة المصريين هو الشمس الذي قال عنها إخناتون في أناشيده "عندما تغيبين في الأفق الغربي ،تظلم الأرض كما في الموت ...(ولكن) عندما يطلع النهار ،وتشرقين في الأفق ...ينهضون وينتصبون علي أقدامهم ...انهم يحيون لأنك تشرقين من أجلهم..."

والآثار من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ عند التأريخ للتراث الحضاري والأثري ،ذلك لأن الوثائق المكتوبة لا تكفي وحدها لهذا الغرض إما لندرتها أحياناً أو لتناقص ما ورد فيها أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير .أما الآثار فتتضمن نقوشاً كتابية أصلية معاصرة للحوادث وغير قابلة للتصحيف والتحريف.

والآثار تنير للمؤلف الطريق إلي معرفة درجة الإتقان المهني الذي استطاع الفنانون الوصول إليه في العصور المختلفة ،كما أنها تلقي الضياء لمعرفة التيارات الفنية التي كانت تترك بصماتها في إنتاج الفنان.وتعتبر الآثار الثابتة من معابد ومساجد وكنائس وأديرة و المنقولة من تماثيل ولوحات وأوان وجعارين وأختام وفنون صغري وغيرها تعتبر سجلاً تاريخياً حياً للأعمال التي قام بها الأجداد في العصور التاريخية المختلفة، وشاهداً مادياً علي ما وصلت إليه الحضارات من تقدم أو تأخر في هذه العصور.

لقد تعرضت الآثار المصرية واليونانية – الرومانية والقبطية والإسلامية والحديثة إلي مخاطر وكوارث لا حد لها . ومن هذه المخاطر والكوارث علي سبيل المثال:

١ –التلوث بمختلف صوره كتلوث الهواء ،وما يحمله من غازات حمضية وأملاح خاصة في المناطق الصناعية .وتلوث الماء والتربة والتلوث الإشعاعي.

٢–المخاطر البيئية بمختلف أشكالها كالزلازل والسيول والمياه الجوفية.

٣–التغيرات المناخية وتركيز الغازات المسببة لتآكل طبقة الأوزون وشدة الحرارة وما يصاحبها من بخر المياه وتراكم الأملاح.

٤–الأخطار الحيوية المتمثلة في نمو النباتات والأعشاب والحلفا وحشيشة البحر وسط الأحجار وعلي جدران المباني الأثرية.

٥–الأخطار الحيوانية من خفافيش وكائنات دقيقة وغيرها.

٦–الأخطار البشرية المتمثلة في التوسع الزراعي وما ينتج عنه من مشروعات للري والصرف وما يتبع ذلك من زيادة نسبة الرطوبة وزيادة المخزون من المياه الجوفية.

٧–الصرف الصحي وشبكات المجاري التي تؤدي إلي رفع منسوب المياه وما يترتب علي ذلك من إيذاء أو تلف وتدمير العديد من المباني الأثرية.

٨–أجريت حفائر كثيرة في مناطق عدة ونقلت المقتنيات إلي مخازن غير معدة إعداداً سليماً سواء تلك التي تخضع لمراقبة المجلس الأعلى للآثار أو تلك التي تخضع للبعثات المختلفة الأجنبية وتقوم بالحفر في مواقع عدة ويتم تسجيلها تسجيلاً غير سليم بحيث يصعب كثيراً التعرف عليها كما يساعد ذلك علي تسربها وضياعها واستبدالها.

٩-تزايد الحركة السياحية في السنوات الأخيرة وتهافت السياح علي زيارة الأماكن الأثرية ،خصوصاً المقابر في البر الغربي بالأقصر وتعرض مناظر هذه المقابر لأثار الرطوبة المنبعثة من جمهور السائحين.
١٠-إقامة بعض الحفلات والمهرجانات في المناطق الأثرية وتعرض الآثار للتلف من جراء تكدس الجماهير.
١١-حركة المواصلات البرية والجوية وما ينتج عنها من اهتزازات لبعض المباني.
١٢-جزء كبير من حفريات المتاحف غير مسجل تسجيلاً علمياً وأحياناً مدون فقط في كشوف وغير مزودة بالصور وعلي الأخص المتحف المصري(بدروم المتحف).
١٣-توجد معابد ومقابر في مناطق نائية مثل الواحات وسيناء غير مسجلة وكثيراً ما يعتدي علي بعض المناظر في هذه المعابد والمقابر ولا يمكن التعرف علي الحقيقة.
١٤-حدث في السنوات الأخيرة تسرب الآثار إلي الخارج في المناطق الأثرية لضعف الحراسة.

لهذه الأسباب يجب إعداد مشروع يهدف إلي تحديث وسائل تسجيل الآثار من خلال مفهوم يواكب المتغيرات العلمية السريعة.

أولا:- تحديث وسائل تسجيل الآثار عن طريق استخدام الأقراص المدمجة المضغوطة المعروفة باسم C D ROM التي يتم عن طريقها تسجيل الآثار الثابتة ومقتنيات المتاحف الأثرية واستخدام الوسائط المتعددة المعروفة باسم MULTI MEDIA بدلاً من الأسلوب القديم المستخدم حالياً المتمثل في البطاقات الورقية أو الميكروفيلم MICROFILM أو الميكروفيش MICRO-FICHE وهذا الأسلوب لا يصلح حالياً لتسجيل آثارنا المهددة بالتلف والضياع.

ثانياً :-استخدام صور ملونة للأثر من الجوانب المميزة للأثر وتوضيح النقوش و الكتابات الموجودة علي الأثر وعمل رسوم دقيقة لما هو موجود علي الأثر يقوم بتنفيذها رسامون متخصصون في الرسوم القديمة تحت إشراف رجال الآثار.

ثالثاً:- ضرورة العناية بالعامل البشري وتأهيله تأهيلاً علمياً كافياً لأنه هو الذي سوف يقع علي كاهله عبْ القيام بعملية التسجيل وفقاً للأساليب العلمية الحديثة.

رابعاً:-علي أن تحقيق هذا الهدف الأخير وهو تأهيل العامل البشري لن يتأتي إلا عن طريق إدخال مادة الحاسب الآلي وطرق التسجيل العلمي الحديث ضمن المواد الدراسية بكلية الآثار جامعة القاهرة وكذلك ضمن المواد التي تدرس بأقسام الآثار أو بشعب الآثار الملحقة ببعض الكليات بالجامعات المصرية الإقليمية علي أن تحظى هذه المادة باهتمام كبير من المسئولين عن هذه المؤسسات التعليمية ولا تصبح مجرد تدريب فعلي علي استخدام الحاسب بل يجب أن تكون ضمن مواد السنوات الأربع وأن تكون مادة نجاح و رسوب وتضاف إلي المجموع الكلي للدراجات حتى تنال اهتمام الطلاب.

خامساً :-إن تطبيق هذا الأسلوب الحديث عند تسجيل الآثار سوف يحتم ضرورة الاستعانة بالخبراء والعلماء والمستشارين المصريين والأجانب في هذا المجال لأنهم يمثلون القاعدة التي

عليها تحديث تسجيل الآثار ويصنعون البرامج الدقيقة وإعداد الكوادر المطلوبة لهذا المشروع القومي وتدريبها علي عملية التسجيل بالأسلوب العلمي الحديث.

سادساً:- أن يقوم المجلس الأعلى للآثار بضرورة توفير الإمكانات اللازمة من موارد مالية وأجهزة ومعدات وخبراء مستشارين في مجال تسجيل الآثار بالأسلوب العلمي الحديث لتدريب العاملين في مركزي تسجيل الآثار المصرية والإسلامية والقبطية واليونانية الرومانية علي طرق التسجيل الحديثة حتى يمكنهم في المستقبل القريب تحمل عبء عملية التسجيل وفقاً لأحدث الأساليب العلمية بدلاً من الاعتماد علي المؤسسات والخبرات الخارجية وان يبدأ المجلس الأعلى في إيفاد بعض الآثاريين من جميع التخصصات إلي الخارج في بعثات علمية لممارسة تسجيل الآثار بالطرق الحديثة في المتاحف الأوروبية والأمريكية الكبرى والإطلاع علي سجلاتها وعلي المجلس الأعلى للآثار أن يقوم ببذل الحوافز المالية لتلك الكوادر حتى تقبل علي التخصص في مجال التسجيل وفقاً للأساليب العلمية الحديثة.

سابعاً: وحتى يتحقق تنفيذ هذا المشروع القومي الهام يتطلب إيجاد الموارد المالية اللازمة للإنفاق عليه وفي الإمكان الاستعانة بالمنظمات الدولية من المؤسسات الأكاديمية المتخصصة ومركز المعلومات التابع لرئاسة مجلس الوزراء.

ثامناً:-وبعد أن يتحقق الهدف من تحديث الآثار ،في الإمكان تسويق الأقراص المدمجة المضغوطة CD-ROM بعد الانتهاء من عملية تسجيل الآثار علي المستوى المحلي والعالمي سوف يدر عائداً جيداً من شأنه أن يعمل علي تغطية بعض تكاليف المشروع بل انه سوف يمثل أحد الموارد المالية للمجلس الأعلى للآثار.

تاسعاً:-إن تسجيل أي أثر من الآثار الثابتة التي نقلت إلي المتاحف أو المخازن المتحفية يجب أن يحتوي علي جميع المعلومات التي نشرت عنه في المصادر التاريخية وسجلات وتقارير وكشوف لجان الجرد السابقة وكل المعلومات الخاصة بالأثر علي أن تقوم عمليات التسجيل من الأثر نفسه والاستعانة في بعض الحالات بمصلحة الموازين والدمغة في وزن وفحص الآثار الذهبية والفضية والمواد الكريمة أو نصف الكريمة حتى يكون التسجيل صحيحاً كما يجب ،عمل فهارس لكل موقع أثري والاهتمام الشديد بتسجيل آثار المناطق النائية وإلزام البعثات الأجنبية التي تقوم بالحفر بالقيام بتسجيل الآثار المكتشفة بالطريقة الحديثة.

عاشراً:-عمل حصر شامل لجميع الآثار الثابتة والمنقولة التي سوف تقوم اللجان المتخصصة بتسجيلها بالطريقة الحديثة .وعمل دراسة جدوي للمشروع قبل تنفيذه وإعداد مخازن متحفية مجهزة لاستقبال ما يوضع فيها من آثار.

حادي عشر:- العناية بمجموعات البردي المصري القديم والقبطي والإسلامي وتسجيل ما عليها من كتابات بمعرفة المتخصصين من الأثريين وتصويرها وإيداعها في أدراج لصيانتها وحمايتها من عوامل الرطوبة والحشرات.